هناك جنسان ❖

مقاطع من دراسة طويلة

أنطوانيت فُوك

ترجمة: حسام الدين جلال

مراجعة: الآداب

إلى جدّتي أنطوانيت

وإلى أمي ڤانسانت

وإلى ابنتي ڤانسانت

لو كان باستطاعتنا التخلّي عن شرطنا الجسديّ وأن نَنْظر إلى أشياءِ هذه الأرض نظرةً جديدةً بوصفنا محضَ كائناتٍ مُفكّرةٍ قادمةٍ مثلاً من كوكب آخر، فلن يكون ثمّة ما يسترعي انتباهَنا أكثر من وجود جنسيْن بين الكائنات البشرية...»

سيغموند فرويد، الحياة الجنسية

١ ـ تكوّن فكر، فكر التكوّن

يُولد المرءُ بنتًا أو صبيّاً. وقد وُلدتُ بنتًا في ١٩٣٦/١٠/١ من أم أمّية وعبقرية، ومن أب مناضل ناشط في «الجبهة الشعبية.» يومَ ولادتي كان الغضبُ الشعبيُّ قد انتهى واستولى فرانكو على السلطة في إسبانيا.

شَغَلْتُ أمي منذ حَبلتْ بي في ١٩٣٦/١/١ (والحَبَلُ عند الصينيِّين يساوي الولادة) فعشتُ الجبهةَ الشعبيةَ في أحشائها، ومن خلالها، وعَبْرَ غضبها من هذا الحمْل الثالث الذي فُرض عليها وهي في الأربعين تقريبًا. إذ كانت أُمي بنتًا مُتصَبْبِنةً، وكنتُ أنا متعدِّيةً على حريّتها. ولقد حدَّثتني باكرًا جدّاً عن أحلامها، وعن الكوابيس التي كانت تَنْتابها أثناء حملها: إذ لم يكن لمولودها قدمان.

ولدتُ أنثى وسط ثقافةٍ ذاتِ تراثٍ شفهيٍّ وكتابيٍّ رفيع، هو الجنوب المتوسطيّ العظيم، مَهدُ الأديان التوحيدية ومهدُ الديموقراطية حيث اللهُ والرجلُ يَمْلكان وحدهما حقَّ الوجود. وقد أدركتُ هذا الأمرَ منذ الولادة، منذ الطفولة، منذ المراهقة: ففي شوارع مرسيليا هناك حضورٌ وحشيٌّ للصبيان، وعدوانيةٌ اغتصابيةٌ للرجال. وعزَّز لديَّ هذا الأمرَ كلٌّ من المدرسة الابتدائية والثانوية، وكذلك الدينُ الكاثوليكيُّ الذي «أنتمي» إليه، بإلهه المتجسِّد في ثلاثة ـ أو هو ثلاثةٌ في واحد، حيث المذكَّرُ يأتي أولاً بلا منازع.

في ما دون ذلك، لم تكن قوّةُ أمّي الخارقةُ موجودةً إلاّ بالنسبة إليّ. فهي فرنسية بحُكْم الزواج ولكنّها لم تتأقلم جيّدًا مع جنسيّتها الجديدة. وقد تمَّ الاعترافُ بي كجائزة لشهادة البكالوريا، ثم

سيغموند فرويد

كأستاذة في هيئة تدريسية بفضل الديموقراطية؛ هويّتي تنحرف في القانون القضائيّ بعيدًا عن موقعي الطبيعيّ، في اتّجاه حَجْزٍ ثقافيّ يتطلّب دائمًا إعادةَ صياغة. أبلُغُ ضجرَ المساواة الخانق بأن أَحْرص على ألاّ أَحْجز نفسي إلاّ جزئيّاً. ليس من الممكن أن تصبح المرأةُ امرأةً من خلال هذه التعاليم العائلية والمدرسية والجامعية ومعها وفيها.

يبدو أنّ شيئًا لا يستطيع أن ينتشلني من هذه الدوّامة الملعونة: لا أمّيةَ والدتي الواثقة، ولا هواي الأوّلَ لإحدى الفتيات ـ ذلك الهوى الحيويَّ والمدمِّرَ المتمثّلَ في مثليةٍ جنسيةٍ ساذجةٍ كنتُ أتنبّأ ربّما باكرًا جدّاً بمأزقها السحاقيّ ـ ولا زواجًا ناجمًا عن حبّ. ذلك أنّ كلّ شيء يبدو وكأنّ عليه أن يرتدّ إلى الأمر نفسه، بما في ذلك الشعراءُ الذين كانوا يريدونني أمّاً.

❖ ـ دراسة نُشرت في كتاب سبق ذكره في مقالة آن بيرجيه.

إنّ «القانون،» أضحيّةً كنتُ له أَمْ متواطئةً معه، أعمى وأصمُّ حيال حاجتي الأكثر أساسيّةً: وهي أن أُوجَدَ. لقد كنتُ مخيَّرةً بين العبودية أو السيادة المُطلقة، بين النسوية الغيرية (الهستيرية) أو المثلية المنغولية (الذُهانية)، أو بين النسوية الغيرية أو المثلية السحاقية. وأنا أَحْسبني في منتصف الطريق من حياتي، وأُحِسُّني ضائعةً.

منذ سبعة وعشرين عامًا، وكنتُ على أبواب السابعة والعشرين (أكملتُ اليوم الرابعةَ والخمسين)، سَقَطَ عليّ الحَبَلُ فجأةً، ضرورةً أكثر منه مصادفةً، حظّاً حسنًا أكثر ممّا هو نحسًا، ولكنّه اختبارٌ مُلْزِمٌ في أيّ حال. وقبل ذلك بعشرة أعوام، سقطتُ مريضةً: أسبابُ تشخيص المرض غامضة، منشأُه قبلَ الولادة، مرضٌ قبتاريخيّ أصاب قوّتي المحرّكة، ويعود إلى الزمن الذي كانت فيه أمّي تَحْلم بأنّي بلا قدمين، مَرَضٌ (شكلٌ من تصلّب صفيحيّ) كان في ذلك الوقت يتعارض مع الحمْل ويشكّل دافعًا لإجهاضٍ طبيّ. أما اليوم، فإنّهم يلجأون إلى أُمّ بديلة، أُمٍّ تَحْمل. جرَّبتُ حظّي؛ ولأنّي قد قمتُ بفعل الحمْل، فإنّي أتجاوز عقبة مرضي. بي رغبةٌ في أن أُنجب ولدًا، ومع ذلك فأنا خائفة. إنّ القلق والأمل لا يَنْفصل أحدُهما عن الآخر؛ وهذا هو موضوع رسالتي للدراسات العليا. وإذ أواجه الأمريْن، فإنّ المتعة تستعصي على التسمية، ولكنّني أستشعرها عند هذا المنعطف.

وَضعتُ مولودي في ١٩٤٦/٣/٣، بنتًا بصحّة ممتازة (وهي ستَدْخل عامَها السابعَ والعشرين عمّا قريب). وقد اتفقنا أنا وأبوها على تسميتها باسم أمي، كما كنتُ قد أخذتُ من أبي اسمَ جدّتي لأمّي. كان يريد تسميتَها أنطوانيت فأحببنا فانسانت (...) كلمةُ «جسد» البكماء التي لازمتني طوال فترة حملي (ثمرة أحشائك، لحم لحمي) مرافقةً الخوفَ من نقل مرضي، وذعْرَ العدوى، هذه الكلمة تفعّل الأحلام حول الأفكار الكامنة لسلالة أنثوية، لسلاليةٍ للفكر.

سأَدْفع غاليًا ثمنَ المجازفة التي قمت بها، بالرُّغم من أنّ صحتي في الأوقات الأولى، وخلافًا لكلّ التوقُّعات الطبية، قد تحسّنتْ ويا للمفارقة. ولقد جعلتْ تبعاتُ الإنجاب سَيْري أكثرَ ترنُّحًا. ولكنّ ما سأخسره في المشي، سأربحه في مقاربةِ ما يَشْغلني منذ الزمن الذي بدأتُ فيه رحلةَ التساؤل.

كان العملُ اللاواعي للحمْل بالنسبة إليّ، بديناميّته، نكوصًا مهمّتُه إعادةُ اندماج وترميم نرجسيّ، وكان عاملاً للتحوّل ولوعي للهوية: فقد وُلدتُ بنتًا، وعُدتُ لأولد من جديدٍ امرأةً لكوني أنجبتُ بنتًا، فاضطلعتُ ـ بالرُّغم من جور جميع المؤسّسات الرمزية (المعزِّزة بإملاءات نسوية معيّنة) ـ بالقَدَر النفسيّ الفيزيولوجيّ لجنسي.

وهذه العناصر السِّيَر الذاتية غيرُ ماثلةٍ هنا لتتحدّث عني ـ ومَنْ أنا، عام ١٩٦٤ أو حتى اليوم؟ ـ بل لكي أقتربَ أكثرَ ما يمكن ممّا أستطيع أن أعرفه من تماثلات identifications وخروجٍ ـ عن ـ تماثلاتِ désidentification كائنٍ يُفترض أنّه امرأة.

الحَبَلُ، تجربةً، أكّد لي، وعلى نحوٍ أكثر إثارةً ممّا كان يمكنني أن أتصوّره، أنّ هناك حقّاً جنسين. فحتى لو تشاركنا، أنا ورجل، في الإنجاب فعليّاً، وخياليّاً، ورمزيّاً، وشرعيّاً، فقد كان عليّ رغم ذلك أن «أفبرك» طفلي وحدي خلال تسعة أشهر.

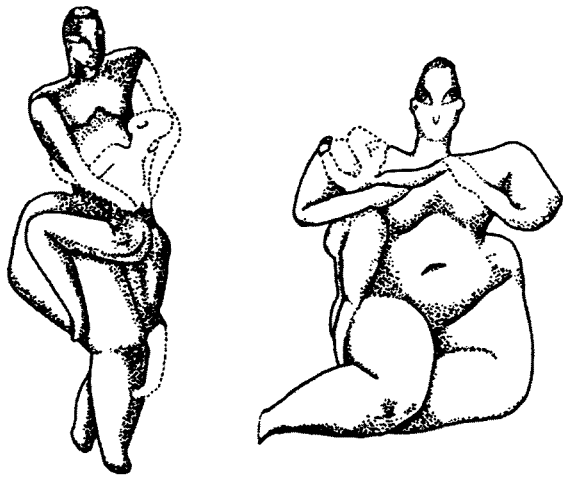

وقد تَبعَ اللعبةَ الجنسيةَ («لذةَ الحبّ») عملٌ جسديّ كثيف ومتواصل، لم يَسْمح لي وضعي بنسيانه لحظةً واحدةً. كما تبعها نشاطٌ فكريّ (...) لم يتخلّ عني طوال مدّة الحمل.

وعندما وعيتُ أنّ دورةً أولى قد أُنجزتْ بفعل هذا الحدث، بدأتُ السيرَ مرّةً أخرى في أرض البشر، بحثًا عن أدواتٍ أَخْتَرعها لكي أقترب من ذاك الذي يُفكّر في داخلي من دوني.

٢ ـ العقبات

على المستوى الرمزيّ. في اللّحظة التي كانت لديّ فيها كلُّ الأسباب للتيقّن من وجود جنسيْن، ومن عدم وجود أيّ إجراءٍ للمساواة يزيل التناقضات بينهما، أَدركتُ أيضًا أنْ ليس هناك رسميّاً إلاّ ليبيدو (طاقةٌ جنسيةٌ) واحدة، وأنّ هذه الليبيدو قضيبيةٌ.

هذا ما يؤكّده الخطابُ الوحيدُ الموجودُ عن الجنسانية: إنّ فرويد، مُعزِّزًا بلاكان، ومعزِّزًا أيضًا بفرنسواز دولتو، أكثرُ قضيبيةً من القضيب المطْلق ذاته (...)

وفق التحليل النفسيّ، لا يولد أحدُنا امرأةً (كما كانت سيمون دو بوڤوار تقول أيضًا، بطريقة مختلفة، ولكنّها مع ذلك متوافقة)، بل إنّ المرء يولَدُ صبيّاً صغيرًا، أو بالأحرى صبيّاً صغيرًا مخصيّاً. في هذا المنظور لا يُمْكن للهوية الأنوثية إلاّ أن تكون هوية مشتقّةً وسلبيةً لكونها محدَّدةً بغيابٍ أو بنقصانٍ معادلٍ قضيبيّ (بحسب فرويد ولاكان).

في حيّز الأحدية القضيبية يؤخذ المرءُ إلى التناوب: القضيبيّ للصبيّ، المخصيّة للبنت. إنّ نظام (قانون) الخصْي يَحْكم اقتصادَ القضيب الذي ترتبط فيه كلُّ مُتعة ومن ثم كلُّ رغبة (كما يرى لاكان). ومنذ اللّحظة التي تُقرّ فيها النساءُ بأنهنّ مخصيّات (واقعيّاً) أو قابلاتٌ للخصْي (رمزيّاً)، يكتسبن شرعيَّتَهنّ ولو سلبيّاً في النظام القضيبيّ. كثير من النساء يفضّلن، إذن، أن يتموضعن في هذا الحيّز أكثرَ من أن يفكّرن بنظامٍ رمزيّ تكميليّ للنظام القضيبيّ.

إنّ المرحلة التناسلية، مرحلةَ النضج النفسيّ ـ الفيزيولوجيّ للطاقة الجنسية، التي أكون فيها قادرةً على خلقِ كائنٍ حيّ، تُعادَل بالمرحلة القضيبية أيْ مرحلةِ التناسلية الطفلية للصبيّ، المتميّزة

بالاهتمام بجنسه الخاصّ به. ومن هنا، يصبح الأخذُ في عين الاعتبار (ترميزًا وتكونًا) بالبعد الرحميّ وبنشاطه مستحيلاً. وبدون هذا البعد لا يمكن للمرأة أن تَبْلغ المرحلة التناسلية.

إنّ الرحم لا يُعتبر كعضوٍ فعّالٍ / مُنتِج وقابلٍ للترميز كما هو، بل كمحض مكان (وعادةً ما يجري الكلامُ عن «الوسط» ـ الرحميّ). وهو بالإضافة إلى ذلك، على ما يدلّ أصلُ الكلمة، «مكان» «مُتراجع» ما قبل تاريخي، ما قبل ولاديّ، لا يَسْتدعي إلاّ النكوصَ. ومن ثمّ فإنّ التناسلية الأنثوية مردودةٌ إلى البيولوجية المحض، إلى الطبيعيّ ـ الماديّ الماقبل نفسيّ أو الماقبل شفويّ (أو حتى الماقبل ما قبل الشفويّ). والحقّ أنّ هذا المكان الرحميّ لا يبقى نهائيّاً في «الخلف» أو «وراء الذات» إلاّ بالنسبة إلى مَنْ خَرَجَ منه بلا عودة وإلى مَنْ لم يعش التّماسَ معه إلاّ على نحوٍ سلبيّ جوهريّاً: ألا وهو الابن. ومع ذلك، ففي حيّز البرمجة القضيبية، كلُّ شيء يتمّ كما لو أنّ الرجل والمرأة لا يستطيعان تصوُّر الأم ـ الجسم أو اللّحم الأموميّ إلاّ كمكان وسط (وسيط) أو كموضوع objet للولد، الذي هو الذات sujet الوحيدة.

لكنّ الأم التي تضع مولودَها ليست موضوعًا، تمامًا كما أنّ الولد ليس موضوعًا لها. فالمرأة التي تنجب وتلد لا تبقى في «الخلف»: إنّها تعمل، وترافق، وهي تَسْبق الذات التي تأتي. وإذ تَفْعل ذلك، فإنّها لا ترتدّ إلى الجسد الأموميّ، بل تَدْمج هذا الجسدَ الأولَ في داخلها، في الوقت الذي تَنْطلق فيه إلى الأمام وإلى الخارج إذ تلد.

إنْ لم تركّز النساءُ انتباهَهنّ إلاّ على الحدّ القضيبيّ، ولم يُدْركن الضرورةَ (النفسية، واللابيولوجية) في الانخراط بصيرورةٍ نكوصيةٍ وإعادةِ تكاملٍ متماهيةٍ تَسْمح وحدها بالإفلات من منطق الهوية القضيبية، فإنهنّ لن يستطعن حقّاً أن يتقدَّمن. فإمّا أن يصبحن «بنات مُتصبينات» filses (صِبْيةً ناقصين)، وإمّا أن يبقين هِسْتيريات (حرفيّاً أولئك اللواتي يعانين مِنْ/وفي/الرحم)(...)

هذه العملية من النكوص وإعادة التكامل تتكرّر حين تلد امرأةٌ بنتًا. ولكنْ وحدَها المرأةُ التي تَلِدُ صبيّاً هي التي تستحقّ لقبَ «الأمّ» في المتخيَّل الثقافيّ. وبعبارة أخرى، ليس الإيلادُ هو الذي يَجْعل من المرأة أمّاً، وإنّما تسميتُها ومنزلتُها في داخل البنية الأبوية وفي توريثِ اسم الأُسرة. كذلك لا يُمْكن النظرُ إلى انتقال الفتاة إلى حالة المرأة إلاّ عبر علاقتها بالرجل (الذي افتضَّها/تزوَّجها/شَرْعَنها) لا عبر أهليَّتها للإنجاب: إنّها بالتأكيد لحظةُ الغياب لفكرٍ لا يحبّ التفكرَ بذاته.

بإمكاننا أن نقول تقريبًا إنّ المرأة (لا المفهوم، بل الواقع الفريد والمشترك لكلّ امرأة) لا مكانَ لها في التاريخ. ذاك أنّه حتى ما يُسمَّى «أنثويّاً» ليس، في غالب الأحيان، إلاّ استعارةً، تمثُّلاً (إعادةَ خلق أو اختلاقًا) استيهاميّاً للمرأة قام به الرجلُ، ونوعًا جنسيّاً يتّخذه الرجلُ لنفسه، أيْ تنكّرًا. إنّ أنوثةً ما ـ تُعْلن عن نفسها وتتسوَّق بهذه الصفة ـ ليست هي التعبيرَ عن كلامٍ داخليّ أو عن جسدٍ أو عن متعةِ امرأة، بل هي النوع الجنسيّ الذي تَصطنعه المرأةُ، بالمقابل، للرجل، مقلِّدةً بذلك، بفعلِ مضاعفةٍ ثانية، ذلك الذي يحتويها حين يقلِّدها. ومن هنا أيضًا يجيء المنطقُ النفسيُّ /السياسيُّ لنوع من السحاقية (ينبغي أن نميِّزه عن مثلية جنسية نسوية حقيقية) أصِفُه بأنّه تنكُّر مضادّ contre-travestissement، باعتبارِ أنّه لا يَكْمن في البحث عن مكانٍ/أو أمكنةِ المرأةِ في ذاتها، بل في مضاعفة عملية القَلْب الخياليّ، واستبدالِ تيميّة (فتشيّة) بأخرى.

من أجل هذا أُفضِّل صفة «مؤنّث» femelle (كما تحافظ عليها وتستعملها اللغةُ الإنكليزيةُ في عبارة female writing) على صفةِ «أنثويّ» feminin: فكلمة femelle لا تحيل بالنسبة إلى المرأة على سجلّ بيولوجيّ قبل نفسيّ أو ضدّ ثقافيّ: إنّها تَسْمح لي بأن أوضح ضمن الإطار الفكريّ والثقافيّ ـ الذي يحدِّدَ الإنسانيّ نفسَه ـ عملَ الجسم أو الجسد المتعلِّق بالنساء.

ليس المقصودُ هنا تبنّي مفهومٍ ضدّ قضيبيّ أو ضدّ أوديبيّ، الأمر الذي يَدفع إلى المطالبة بإلغاء القضيب. فالمرحلة القضيبية للفتاة الصغيرة (بل وللمرأة أيضًا)، التي تماثلُ على صعيد النشاط الجنسيّ النشاطَ البظريَّ، هي على الأقل مُبَنْينةٌ بالقدْر نفسِه للبنت كما للصبيّ. ولكنّها ليست نهائيةً، بعكسِ ما يَحْدث للصبيّ. وبالنسبة إلى الرجل نفسه، أهناك سببٌ آخرُ لرغبته في الانتصاب اللامحدود سوى استيهامٍ ذي هيبةٍ محض وتأثيرٍ على الجنس المسمَّى «ضعيفًا» وعلى الطبيعة؟(...)

إنّ القضيب، الذي هو تمثيلٌ للعضو الذكريّ المنفصل عن الجسد وفي انتصابٍ خياليٍّ دائم، إنّما هو استيهامٌ نرجسيّ. فهو مُنتصب وقائم على هذا النحو للتعبير عن مقاومته للخصْي، وخصوصًا لإنكار اختلاف الجنسيْن ولإنكار الجسد في عمله بما هو [أي الجسد] سندُ هذا الانتصاب. إنّه تخيُّلٌ في حالةِ تناقضٍ مع واقع الجنس ومع القدرة الإيلادية والخلاّقة ـ المشتركة للجسد

الأنثويّ(...) إنّه علامة «الإنكار» لا لمبدإ الواقع وحده، بل للواقع ذاته أيضًا. وبهذا المعنى يمكن القول إنّ النظام القضيبيّ إنّما هو في الواقع قبل تناسليّ. ففكرة القضيب هي فكرة ميتافيزيقية محض؛ إنّها وهم من أوهام التحليل النفسيّ.

الرجل الراشد لا يُمْكن إلاّ أن يُقرّ الارتخاءَ، اللاحقَ للانتصاب، لعضوه الواقعيّ(...) وعلى الرجل الراشد أن يتخلّى، في وقت واحد، عن مقاومة الخَصْي (وهي المقاومة النرجسية للصبيّ الصغير)، وعن السيطرة الجسدية والنفسية على الحمل طوال فترة حصوله.

[...]

من المعروف أنّ الكنائس لم تكفّ قطّ عن توكيد سلطتها على جسد المرأة، ولكنّنا ننسى عن قَصْدٍ أنّ الدول يتملّكها هي أيضًا جنونُ السيطرة على الإنجاب: فبعضُها يجرّم الإجهاض، وبعضُها الآخر يَفْرض العقمَ. أتوجد هناك دولةٌ واحدة لا تسنّ قوانينَ على جسد النساء؟

إذن، كيف يمكن التفكيرُ وتفعيلُ استقلال النساء الرمزيّ؟

إنّنا حين نَرْفض التماثُلَ المساواتيّ، فهذا يعني أنّنا نرى أنفسنا كشريكيْن محتمليْن لترميزية غيرية جنسية، بدلاً من توأميْن مخصيَّيْن في نظام جامد ومعلن غير قابل للتغيّر.

ولكنْ أن نفكّر بالحيّز الخاصّ بكل جنس في إنتاج الحيّ ـ الناطق (البشريّ)، وأن نُطالب في وقت واحد بالاعتراف بالفروق وبالمساواة الاقتصادية والسياسية والثقافية والرمزية للنساء والرجال، فهذا يعني أن نصطدم على جميع المستويات، لا على المستوى الرمزيّ وحده، بالآليّات النظرية ـ السياسية التي يجب إبطالُ مفعولها، لأنّها تحاول استعادة الحقيقة والتجربة الجنسانية للنساء باسم عقيدة الأحدية القضيبية.

[...]

على مستوى اللغة. من المعروف في اللغة (على الأقل في اللغات الهندو ـ أوروبية) أنّ لفظة «رجل» Homme تتطابق مع لفظة «إنسان» Humain. وعندما نتحدّث باسم الإنسانيّ لا تستطيع المرأة أن تجاوب. هناك باللغة الفرنسية نوعان ـ مذكّر ومؤنّث ـ ولكنّ هذين النوعيْن لا يحيلان على الجنسيْن (على الواقع الجنسانيّ) حتى وإنْ قاما مقامهما، أو أُريد لهما أن يلعبا هذا الدور. بالإضافة إلى ذلك، ففي النحو الفرنسيّ يَغْلب النوعُ المذكّرُ على النوع المؤنّث، بل هو يلغيه بمجرّد أن يحتلّ عنصرٌ مذكّرٌ واحدٌ مكانَه إلى جانب المؤنّث.

إذن ليس هناك إلاّ لغة واحدة وجسدان جنسانيان مختلفان هما كلاهما ضحية هذه اللغة ذاتها. النحو ومعجم اللُّغة يدلاّن، عند الحاجة، على أنّ اللغة ليست هي الأخرى حيادية، أو أنّ حياديّتها تأخذ مرّة أخرى طابعَ المذكّر. وإذا لم تكن حياديةُ اللغة حيادًا بالفعل، فإنّ منطق الخطاب أقلّ منها حيادًا كما دلّ على ذلك جاك دريدا الذي يعرّف آليتها باسم «القضيبية المركزية الأنانية» Phallogocentrisme. والآن، بعد صفة «أنثى» فإنّ علامة المؤنّث هي التي تميل اللغةُ إلى تناسيها أكثر فأكثر(...)

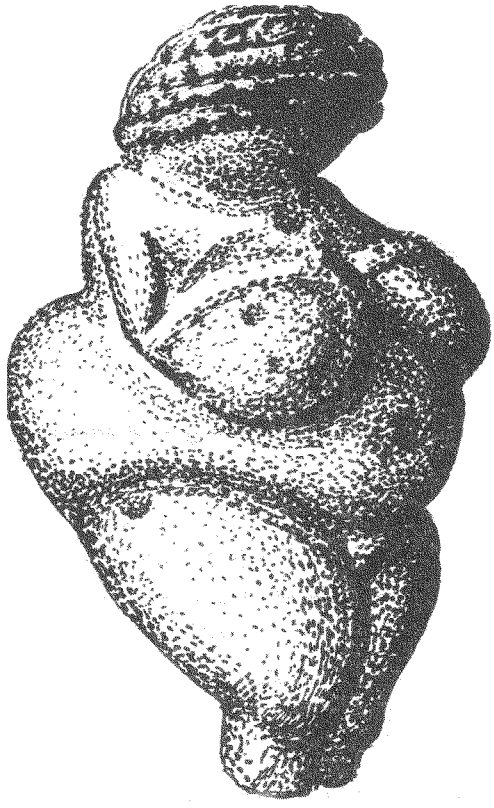

مسألة الفاعل في الكتابة ـ من يتحدَّث، من يكتب حين «أكتب»؟ ـ أكثرُ تعقيدًا بما لا يقاس، وأنا لا أدّعي أن أُنصفها هنا. فمن المؤكّد، في جميع الأوقات، أنّ كتاباتنا وتصوُّراتنا، وبالتأكيد كلامنا، منسجمة أو مختلفة مع الضغط الذي يمارسه الجسد على اللغة وعلى مفاعيلها الاستيهامية. إنّ المرء حين يولد بنتًا أو صبيًّا يصبح امرأةً أو رجلاً ولكنْ أيضًا مذكّرًا أو مؤنّثًا. (ا) بن (ت) أمٍ أو أبٍ. هذه هي كل إشكالية المسافة من النوع إلى الجنس، إشكالية التطابقات المعقّدة التي تنبني وتتكوّن بها كل ذات. وبالإجمال يجب أن نأخذ بالاعتبار هنا بُعدَ الثنائية الجنسية النفسية. بَعدَ هذا القول، لن تكون الكتابة حيادية أبدًا: إنّ القَدر الجسمانيّ يتحدّد، أو يمحّي أو يتحدّد من جديد. واختلاف النوعين يأتي ليعزّز أو ليمحو اختلاف الجنسيْن. فكيف للكتابة، كتجربةٍ لذات ذي جنس، أن تكون حيادية؟

أحبّ أن أطرح هنا، الآن، فرضية ستجدونها على الأرجح صادمة، ومع ذلك... أتساءل ـ كما يوحي بذلك جان جاك أنّو في **حرب النار** ـ إنْ لم تكن النساءُ هنّ اللواتي اخترعن اللغة. فلقد أثْبت بعضُ علماء الإناسة أنّ النساء كنّ في البدء يعملن في الزراعة وصيد السمك، في حين كان الرجال يعملون في الصيد البريّ والحرب. وأنا أعتقد أنّ النساء كنّ عالمات أناسة زراعية وكنّ ـ أثناء مدة الحمل، وبعد ذلك، وهنّ يتحدثن إلى الجنين والطفل ـ قد اخترعن اللغة المحكيّة ونقلْنَها.

والواقع أنّنا إذا تأمّلنا مسألةَ المهارة الفلسفية في توجيه الحديث فسيقودنا ذلك إلى التفكير بالصبر على الإصغاء للآخر وعلى التحدُّث إليه. والحقّ أنّ امرأة حاملاً تصغي بالضرورة إلى الجنين وتتحدّث إليه. وهذا يُشكّل بالنسبة إليّ المشهدَ الافتتاحيَّ للّغة.

٣ ـ من أجل «عقد إنسانيّ جديد»

تنتظم فكرتي إذن حول الخضوع لمبدإ واقعيّ يمكن أن أعرّفه كما يلي: هناك جنسان لا يمكن اختزالُ أحدِهما بالآخر. وهذه اللااختزالية ترتكز على عدم تطابق الرجل والمرأة في ما يخصّ عمل الإيلاد، بما هما المكان والزمان النوعيان لاستقبال الآخر(...) فالتكوّن هو صيغة التفكير بالآخر.

هذه الحقيقة تُنْكرها، على جميع الصُعُد، حضارتُنا التي تقوم على توكيد ديكتاتوريّ يذهب إلى القول بأنّه ليس هناك إلاّ واحد، واحد من دون واحدة، واحد بدون آخر.

والاعتراف بهذا الواقع ـ أي وجود جنسيْن ـ يجعلنا ننتقل من تاريخ جنسانية مثلية homosexuée قامعة متّصفة باللامساواة ومُقْصية، إلى تاريخ غيرية جنسية خصبة وعادلة، يجعلنا ننتقل من النظام القديم الذي سنّه الأبناء، باسم الأب ثم الأخ، إلى حضارة جديدة. من أجل ذلك يجب أن نعمل على تكوين تحليلية جديدة وعلم أخلاق جديد للإيلاد.

تحليلية الإيلاد. هذه التحليلية تمرّ، كما سبق لي أن أشرت، بوضع نظريةٍ تناسليةٍ لكلّ جنس، تأخذ بالحسبان تكوّنَ التناسلية «الأنثى» ـ وحتى التناسلية الذكر ـ في ما وراء الحدّ القضيبيّ، وهي بالتالي تقرّ في نطاق بحثها وتفكيرها بما أسمّيه «المرحلة الرحمية» الموازية «لليبيدو رحمية» أو«ليبيدو أنثوية.»

[...]

إنّ منعطفًا ابستمولوجيًا كهذا لا بدّ أن يؤدّي إلى إعادة تشكيل علاقات الجنس، علاقات الجسد والنفس في تمفصلهما، المنفصلِ والمشتركِ، مع النظام الثقافيّ. ذلك أنّ الرحم (وظيفة وعضوًا)، وإنْ كان تناسليًا، فهو ليس أقلّ من ذلك جنسيّاً (متعة رحمية). ولكونه رحمًا للحيّ، فهو في وقتٍ واحدٍ العضوُ الجنسيُّ الذي يلعب والذي ينتعظ، الجسمُ العامل والجسدُ المفكّر. ومن جهة أخرى فإنّ مثل هذه التحليلية لإنتاج الحيّ، التي لا تَفْصل البيولوجيّ عن النفسي (كلاوعي ولغةٍ في الوقت نفسه، لأنّ المرأة في حالة الحمل كائن ناطق) ولا تفصلُه أيضًا عن الرمزيّ، ستعطي بُعدَها الثقافيّ الكامل لنشاطٍ حيويٍّ من أجل مستقبل جنسنا وسلالته وذاكرته وتراثه وتاريخه. وبعبارة أخرى، ستسمح بوضع حدّ لهيمنة الثقافة كميتافيزيقيا، تضع وجهًا لوجه الخلقَ والإيلادَ، مرجّحةً قيمةَ أحدهما على قيمة الآخر، ناظرةً إلى الوجود ووظيفة الجنسيْن وفق هذا الخط من التقسيم [..]

أخلاقية الإيلاد

لكي نصل إلى صياغة «عقد إنسانيّ» جديد يأخذ بالحسبان جميعَ الأبعاد الجسدية والحقوقية ـ الاجتماعية والرمزية لوجود الكائنات الحيّة ـ الناطقة، يجب أن نفكّر أولاً، على مستوى التنظيم الجماعيّ، بهذا اللامفكَّر فيه في مجتمعاتنا ألاَ وهو إنتاج الحيّ. يجب أن نخترع «اقتصادًا نسائيّاً gynéconomie» أو علْم أُنْثى géminologie، يكون علمًا إنسانيّاً للحصّة التي تعود للنساء في الإنتاج وفي كل إنتاج.

[...]

إنّ جسد الأم هو البيئة الأولى؛ إنّه الوسط الطبيعيّ والثقافيّ، الفيزيولوجيّ والعقليّ، الجسديّ والكلاميّ الأول. إنّه العالم الأول المستقبِل (أو الرافض) الذي يتشكّل فيه الكائنُ البشريُّ ويتخلَّف وينمو. إنّه الأرض الأولى والبيت الأوّل. إنّ لحم المرأة الحيّ والناطق والذكيّ هو المادة الأولى العاقلة، وكذلك المصْنع الأول، والآلة العظمى للإنتاج. أيُّ حاسوبٍ عبقريّ هي هذه الرحم الموصولة بالدِّماغ، بالجهاز الهرمونيّ، بجميع الأعضاء، ولكنْ أيضًا بالجهاز النفسيّ، بالروح، بالحبّ! الجسد الخلاّق هو بمثابة عنصر خامس، الجوهر الذي يحتوي على العناصر الطبيعية الأربعة ـ الماء، النار، الهواء، التراب ـ ويعقّدها. إنّ تكوّن الجنين هو المكان والزمان الوحيد للأصل المشترك والشموليّ لجنسنا.

لا يبدو أنّ هناك علم أخلاق ممكنًا من دون العمل على (أقول العمل على، وليس العودة إلى) الأصل.

وهكذا يصبح ممكنًا إنْ لم يكن الخروجُ من الرمزيّ (بمقدار ما يتطلّب الرمزيُّ الاثنين، لا يبدو هذا الخروج ضروريّاً) فَعَلى الأقلّ إعادةُ صنعٍ للرمزيّ تنفتح وتتمفصل حول الحقل الدلاليّ للحَبَل وتحيل على واقعِ أنّ هناك جنسيْن.

ما عسانا نستطيعه، نحن النساءَ، في أزمنة اليأس والعقم هذه؟ أن نفعل؟ ذلك ما لا نستطيعه. أن نُسْمعَ صوتنا؟ وهذا ما لا نستطيعه هو أيضًا. ولكنْ أن نفكّر، فهذا هو ما نستطيع دائمًا أن نمارسه.

أنطوانيت فوك

محلّلة نفسية، مناضلة ومنظّرة لحركة التحرّر النسائي في فرنسا

مؤسّسة ومديرة دار نشر دي فام Des Femmes